روائية تونسية تستعين بالماء لسرد حكاياتها

تونس - مع انطلاق الموسم الثقافي الجديد في تونس استضافت المكتبة العمومية بمنطقة الدندان القاصة والناقدة التونسية هيام الفرشيشي للاحتفاء بتجربتها الإبداعية والثقافية وتقديم روايتها الصادرة مؤخرا عن دار الكتاب بتونس "أطياف ماء قديم".

وبعد كلمة البداية التي رحبت فيها مديرة المكتبة بالضيفة والحضور، أعطت إشارة انطلاق الجلسة فقامت الكاتبة سوسن العجمي بتقديم الرواية متناولة عتباتها منطلقة من تأويل دلالات الماء وإعطاء نبذة عن عوالمها وشخصياتها.

وخصصت الجلسة لحوار مع الفرشيشي أجراه الصحافي محمد الماطري صميدة. وقد مثل الحوار المطول في مئة سؤال النبش في ذاكرة الفرشيشي والصور والشحنات العاطفية الكامنة وراءها، وكانت الإجابات البرقية مشحونة بتجليات الذات والتفاصيل الإنسانية التي عاشتها الكاتبة في علاقتها ببيئتها وعائلتها وما بقي في ذاكرتها من رحلاتها داخل البلاد وخارجها منذ الطفولة وإلى الآن، إلى جانب طرح أسئلة حول مواقفها من قضايا ثقافية وطنية وعربية.

وبخصوص كتابتها لرواية "أطياف ماء قديم" بينت أنها مشغل أدبي جمالي بعد إصدار ثلاثة مجاميع قصصية. والرواية بالنسبة إليها هي أن ترى العالم في انعكاسات الماء الأكثر نقاء. أن تتيح المجال للأشياء بأن تغمس ألوانها وأشكالها في نفسها بالشكل الكافي لتستقر وتصنع عوالمها الجمالية. وأن تستدعي من خلال الماء الصور الهاربة التي تلاحقها ذاكرتها. وأن تتعدد صور الماء في كل تمظهراته الطبيعية كي تتدفق الأحداث كالماء وهي تتوهج بطاقة الحياة، مشددة على أن الرواية هي القدرة على سبر مغاور الواقع المرعبة ولكنها تشحنها بطاقة رهيبة على اللعب بأحداث هذا الواقع وتحويلها إلى هموم فكرية وفنية.

ترميم المخطوطات رسالة إلى الأجيال القادمة

حلب (سوريا) - بدقة وصبر يقوم الدكتور محمد خواتمي بترميم المخطوطات والكتب القديمة في ورشته الصغيرة التي أنشأها في حي باب النصر بحلب القديمة بهدف الحفاظ على التراث الثقافي السوري.

نشأ خواتمي في هذا الحي المعروف بوجود المكتبات التي تضم الكتب واللوازم المدرسية حيث يقول "تعلمت مهنة ترميم المخطوطات وتابعتها بسبب حبي للورق ورغبتي في الحفاظ على الثقافة والتراث فبدأت منذ 50 عاما من مجرد هواية لتتحول إلى مهنة ذات مردود مادي ولاسيما خلال فترة دراستي الجامعية".

محمد خواتمي

المخطوطات وثائق تاريخية وطنية يجب الاهتمام بترميمها

وقدم خواتمي شرحا عن المخطوطات التي يقوم بترميمها يدويا من كتب قديمة ومصاحف نادرة تعرضت لتلف وتآكل واهتراءات ضمن النص الكتابي كالسندات والأوراق الرسمية من وثائق حكومية وقيود عقارية ووقفية وأوراق نسب تعود للعوائل والعشائر في حلب.

ولفت إلى أن هذه الوثائق تكون بحاجة لعملية ترميم تقنية باستخدام مواد نباتية بعيدا عن المواد الكيميائية لما لها من تأثير ضار على الورق، الأمر الذي يجعل خواتمي يستخدم موادا ترميمية طبيعية مثل النشاء والصمغ العربي والغراء الحيواني وأوراق السيللوز.

واستعرض خواتمي مراحل ترميم المخطوطات من توثيق المخطوطة وكتابة تقرير عنها بمقاساتها وعدد صفحاتها ونوع الورق والخط الموجود ونوع الحبر والعمر التقريبي لها.

وخلال الشروع بالترميم تقوم لجنة مختصة بإعداد إضبارة للمخطوط وتكلف أحد الأشخاص بعملية الترميم حيث يكون المرمم بمثابة المؤلف ويضع اسمه على المخطوطة المرممة ويقوم بتصوير جميع صفحاتها مع ترقيمها حتى لا يحدث أي خلل في ترتيب الصفحات لأنه سيتم فكها كلها.

ويوضح خواتمي أنه يتم ترميم كل جزء من المخطوطة على حدة وإزالة الغبار والأتربة عنها بدقة باستخدام مشرط جراحي وتنظيفها بفرشاة مخصصة وغسلها من الأتربة وتجفيفها وتسكير الفتحات والأطراف المهترئة حتى تعود لشكلها الطبيعي، ومن ثم تعاد حياكة الأوراق وترتيب الصفحات كما كانت مع الالتزام بعدم تغيير طبيعة المخطوطة، ثم توضع ضمن علبة حافظة مع التقرير الذي وثقها وتحفظ في متحف المخطوطات.

ويبين خواتمي أن تقنيات ترميم المخطوطات القديمة تتم بأسلوب متطور وحديث باستخدام ورق السيللوز لتغطية الفتحات والاهتراءات لأنه يغطي الفتحة دون حجب الرؤية عن كلمات نص المخطوطة.

خواتمي الذي أكد أهمية ترميم المخطوطات لأنها مرجع باق للأجيال تحدث عن طريقة حفظه لمقتنياته الخاصة من خلال وضعها ضمن إطارات خشبية ذات ألواح بلورية تحفظها من العوامل البيئية حتى لا يتغير لونها أو يجف حبرها حفاظا على قيمتها التاريخية.

ودعا الجهات المعنية وكل المهتمين بترميم المخطوطات إلى التوجه نحو المخطوطات الموجودة في الدوائر الرسمية أو في البيوت للمحافظة عليها والاهتمام بها كونها وثائق تاريخية وطنية.

ويذكر أن الدكتور محمد خواتمي شارك في ورشات تقنيات حفظ الوثائق مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة واليونيسكو ومعهد ومتحف متيناداران في يرفان بأرمينيا، كما أقام العديد من المعارض وورشات العمل مع مديرية الثقافة بحلب حول آلية الترميم.

لا فرق بين مرمم المخطوطة وكاتبها

الهوسا قبائل أفريقية مسلمة تبدع في تأليف الحكايات الشعبية

حكايات الهوسا لا تترك موضوعا إلا وتناولته لتتناقله الشفاه

شغلت الحكاية الشعبية اهتمام الباحثين وحفزت فكر العلماء وأثارت خيال الأدباء، وخاصة في مجال المأثورات الشعبية والفلكلور بصفة عامة، لما تحمله من خصائص فنية ومتعة ثقافية تفردت بها عن غيرها من ألوان الأدب الشعبي، ولعل أفريقيا من أكثر قارات العالم تداولا للحكايات الشعبية لكنها لم تحظ بالقدر الكافي من التدوين.

محمد الحمامصي
كاتب مصري

التطورات التكنولوجية لم توقف دفق الحكايات

تشكل دراسة "الحكايات الشعبية عند الهوسا في نيجيريا" للباحثة نادية عبدالفتاح الباجوري إحدى أهم الدراسات في الأنثروبولوجيا الثقافية التي تدرس بالوصف والتحليل موضوع الثقافة الإنسانية للمجتمعات التقليدية والمجتمعات الريفية "أي ثقافة الشعوب"، فتبين معناها وخصائصها وعناصرها، وكيف تنتشر وتؤثر وتتأثر ودورها في بناء شخصية الإنسان.

وفي كتابها رصدت الباحثة وحللت خلال فصوله الستة العشرات من الحكايات الشعبية سواء منها ما ارتبط بالسياسة أو الدين أو الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

التأثر بالحضارة الإسلامية

يزخر تراث الهوسا، وفقا للباجوري، بالعديد من الحكايات الشعبية التي تعبر بأدلة قاطعة عن المكونات الاجتماعية للجماعات المختلفة من شعب الهوسا، كما أنها تقدم وصفا للتركيبة العرقية والثقافية والطبقات الاجتماعية التي تتناولها.

وعلى الرغم من كل التطورات التكنولوجية في أفريقيا وفي نيجيريا خاصة، فإن دور الحكايات الشعبية الشفاهية مازال هو الفعال في مجتمع الهوسا، وشعب الهوسا مولع بالحكايات الشعبية والأمثال وقد لا تخلو بعض هذه الحكايات والأمثال من ذكر حيوان أو حرفة أو مهنة، ومما يدعو للدهشة أن هذه الموضوعات تمتد لتشمل الآلهة والأسلاف والسحرة والأشباح والحيوانات التي تحتفي بها الشعوب على مستوى العالم لما لها من قدرات خارقة مثل: الجنيات وغيرها من الكائنات الخرافية. إن للهوسا تراثا غنيا من الحكايات فهم يعرفون عالم القرى والمدن، ويعرفون العالم السلفي والعلوي، ولديهم حكايات عن الماضي والحاضر، ومن المدهش أن حكايات الهوسا لم يفتها موضوع إلا وتناولته.

وتوضح الباحثة أن قبيلة الهوسا تسكن شمال نيجيريا وهم مسلمون وينتشرون في سوكوتو، وكانو، وزاريا، وباوتشي، وكاتسينا، وبرنو، وزمفرا، وجومبي وغير ذلك، وتعد هذه القبيلة من أكبر قبائل نيجيريا عددا ومكانة، وقد دخلها الإسلام منذ قرون بعيدة فتمسكوا به وبتعاليمه فهم شعب متدين جدا، وقد انصهروا مع الفولاني عندما دخلوا بلادهم وأصبحوا خليطا من الهوسا/ فولاني.

ويعتبر أبناء قبيلة الهوسا من مهرة الزراع ورعاة الماشية، كما أنهم تجار مغامرون وأهل فن حاذقون فهم يجيدون صناعات يدوية تقليدية كثيرة مثل: صناعة الجلود، والحصر، ولغتهم تنتشر في أماكن كثيرة في غرب أفريقيا، ولقد ارتبطت لغة الهوسا باللغة العربية، لأنها اقترضت كلمات من العربية مثل حكمة "Hikima"، رحيم "Rahimi"، ربنا "Rabbama"، واجب "Wajibi" فقبيلة الهوسا تأثرت بالدين الإسلامي وبتعاليمه كما تأثرت بلغته.

كما أن مجتمع الهوسا مجتمع أبوي، الأب فيه هو صاحب السلطة، والكلمة الأولى والأخيرة له، ويتكشف ذلك عبر العادات والتقاليد والمعتقدات التي يعيشها أفراد المجتمع في جميع مراحل حياتهم، وأيضا الحكاية الشعبية لها أهميتها الكبيرة في حياة شعب الهوسا الذي يعتبرها من أهم أنواع الأدب الشعبي لأنها تجسد ماضيه ومستقبله.

وتؤكد الباجوري أن مصادر الحكاية الشعبية الهوساوية تتعدد وتختلف ويصعب تحديدها تحديدا دقيقا إلا أنه يمكن إيراد بعضها: البيئة وما تحتوي، والوضع الاقتصادي وعلاقة الجوار مع الشعوب والقبائل المجاورة، والغارات القبلية والتأثير والتأثر على المستوى الداخلي والخارجي، والاقتباس، والمعتقد الديني. وبيئة الهوسا مليئة بمصادر الحكايات الشعبية الجميلة.

وتتابع أن الرمزية في الحكاية الشعبية تكسبها خاصية الخروج عن المألوف، وهي مجال تصويري إبداعي، وقد اتضح أن معظم الحكايات الشعبية الهوساوية تتميز بالرمزية لأن راوي الحكاية الشعبية يلجأ للرمزية عندما لا يستطيع أن يقول آراءه وأفكاره بحرية أمام حاكم ظالم أو أمام المستعمر الغاشم، ولذا فإن الرمزية هي الوسيلة الوحيدة التي تجعل الراوي يعبر من خلالها عن آرائه وآراء مجتمعه المظلوم.

وترى الباجوري أن حكايات الهوسا كباقي حكايات المجتمعات الأفريقية المتأثرة بالثقافة العربية الإسلامية، وهذا ظاهر بوضوح في كثير من الحكايات الشعبية مثل حكاية "النبي والشيطان" وحكاية "الزرع الذي يحبه الله سوف ينبت ولو دون ماء" التي تشبه حكاية "سندريلا" العربية الشهيرة". ويتضح أيضا أن حكايات الهوسا متأثرة بحكايات كليلة ودمنة الهندية، والتي تتميز دائما بوجود الحيوانات فيها كشخصيات أساسية.

وظائف الحكاية الشعبية

تبين الباجوري أن الحكاية الشعبية في مجتمع الهوسا لها عدة وظائف مثل: الوظيفة الاقتصادية والتي تهتم بالعلاقات الاجتماعية ذات الطابع الاقتصادي، والتي تكمن وراء الأنشطة والممارسات الاقتصادية مثل الوسائل والآلات والأدوات المستخدمة في الإنتاج وغير ذلك من علاقات وقيم ومعايير تتحكم في تلك الأنشطة والممارسات.

الحكاية الشعبية تعرف أفراد المجتمع بمنظومات القيم الأخلاقية والدينية والسياسية والاقتصادية والأسرية وتؤثر عاطفيا في مستمعيها

وأهم الوظائف التي تدعو إليها الحكايات الشعبية الاقتصادية تتمثل في الحث على اتخاذ أرض جديدة لجعلها بيئة جديدة صالحة لكافة الأنشطة في الحياة اليومية، وضرورة التخطيط في العمل الجماعي الذي يعتمد على تقسيم العمل وعدم الكسل ومكافحة البطالة، والتأكيد على أن العمل الجماعي يساعد على استغلال الموارد الاقتصادية بطريقة أفضل، وضرورة وجود ترابط أسري بين أفراد الأسرة حتى يحصلوا على نتائج حسنة في عملهم. كما توضح الوظيفة التي تؤديها الحكاية أن الرزق يحتاج للكد والمثابرة، كما تشير إلى بعض السلوكيات الاقتصادية الحسنة في حالات البيع والشراء، وتنفر من السلوكيات السيئة كالغش والسمسرة.

وهناك الوظيفة القرابية للحكايات الشعبية الهوساوية وهي الوظيفة التي تبين من خلالها علاقة الأب والأم ببعضهما البعض وعلاقتهما بالأبناء، ومعنى ذلك أنها الوظيفة التي تتبين من خلالها العلاقات القرابية عموما والدور الذي تؤديه الأسرة في تعليم وتثقيف وتسلية الأبناء ودعوتهم إلى الاهتمام بالترابط الاجتماعي.

وتحث الحكايات حول العائلة على ضرورة وجود علاقة حميمة وتماسك أسري بين أفراد الأسرة، والتأكيد على أن الاحترام والإحسان والعشرة الطيبة من أهم أسباب حصول المرأة على ما تريده من زوجها. وتشير الحكايات إلى تعدد الزوجات كظاهرة منتشرة في مجتمع الهوسا وعلى وجود الأسرة الممتدة في منزل واحد كأمر طبيعي، وتحث على ضرورة اتخاذ الزوجة الصالحة والتأكيد على أن الإحسان والمعاملة الحسنة يجب أن يكونا لكل مخلوقات الله تعالى، والتأكيد على قيمة الصبر لأنها من أهم القيم الإنسانية.

وترصد الباجوري للوظيفة السياسية للحكايات الشعبية الهوساوية حيث تشير إلى أن أهم أدوارها يتمثل في ضرورة اتخاذ الحذر والحيطة من أعداء القبائل والدول الأخرى، وذلك بذكاء ودهاء، وتحض الحكاية على بعض الصفات التي يجب أن تتوفر في أي ملك أو حاكم والتي من أهمها حسن السياسة، والقدرة على استغلال المواقف لصالح الرعية، وتحمل أعباء الحكم وأن يكون الحاكم ذا خبرة واسعة بأمور الحكم وذا حنكة سياسية وأن يدير شؤون البلاد والعباد وألا يغفل عن مصالحهم.

كما تؤكد الحكاية على ضرورة اختيار حاشية صالحة تعيد الحاكم إلى صوابه إذا حاد عنه، وأهم ما تتصف به هذه الحاشية الصالحة هو عدم استغلال السلطة لصالحها، وأداء عملها بكل إخلاص. وتشير الحكاية إلى كيفية استغلال المستعمر الأوروبي للنزاعات القبلية في أفريقيا لصالحه، إذ أن الحروب كانت تثار آنذاك من أجل ملكية الأرض، والمستعمر الأوروبي بدوره يحرص على حدوث مثل هذه الحروب حتى تكون السلطة الأخيرة أو الملكية الأكبر للأراضي له. وتحث على ضرورة مقاومة الاستعمار الغاشم بالحكمة والذكاء وإظهار الاستسلام والضعف حتى تحين الفرصة للانقضاض والنصر في النهاية.

حكايات الهوسا كباقي المجتمعات الأفريقية متأثرة بالثقافة العربية الإسلامية وهذا ظاهر في الكثير من تفاصيلها

وفي رصدها للوظيفة الدينية للحكايات الهوساوية تؤكد أن تأثير الثقافة العربية الإسلامية على مجتمع الهوسا كان ولا يزال تأثيرا كبيرا، فمجتمع الهوسا يتمتع بحياة دينية تتخلل كل نظمه الاجتماعية نظرا إلى تماسكه الديني، وقد تبين من الحكايات التي استعانت بها الباحثة أن القيم والتعاليم الإسلامية والعربية منتشرة بشكل كبير وواضح نظرا إلى تمسك قبيلة الهوسا بالدين الإسلامي.

ومن أهم الوظائف التي تحث عليها الحكايات الشعبية الدينية يتمثل في أن الخلق والسلوك الذي يدعو له الدين الإسلامي قائم على التزام المؤمن باتباع تعاليم دينه وإيمانه بنبيه والبعد عن الشيطان الرجيم، والإيمان بوحدانية الله، والقناعة والرضا بما قسمه الله، واللجوء إليه في كل الأمور، والتقرب لله بالصلوات والدعوات، والحكم بين الناس بالعدل، ونبذ الظلم وعدم قبول الرشوة.

وتخلص الباجوري إلى أن الحكاية الشعبية تعرف أفراد المجتمع منظومات القيم الأخلاقية والدينية والسياسية والاقتصادية والأسرية وذلك لكونها الوسيلة التي تؤثر خلال الطبيعة العاطفية على شخصية مستمعيها. وأن غالبية الحكايات الشعبية التي تقدم للأفراد عن الهوسا تدور موضوعاتها حول قيم السياق القبلي أي عن عادات وتقاليد الحياة القبلية، وهي، الحكايات، تخاطب قلوب مستمعيها وتشبع رغباتهم وخيالهم وتصور التجارب المألوفة والخبرات الإنسانية، وتساعد على التذوق وتمد مستمعيها بكثير من المعلومات الضرورية لحل كثير من المشكلات، وتنمي الشعور بالذات وبالآخرين، وتدفع العقول إلى حب الاستطلاع والتأمل والتفكير وتثير روح النقد، ومما لا شك فيه أن الحكاية الشعبية تخلق لدى مستمعيها ارتباطا بتاريخ الوطن وأحداثه وقيمه وعاداته وتقاليده.